الّذين آمنوا بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في ميدان المعركة في بدر . سألقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب وشديد الخوف فاضربوا فوق الأعناق وأصيبوا الرّقاب وأطيروا الرّءوس ، واضربوا منهم كلّ بنان وكلّ طرف وكلّ عضو .

والمعروف أنّ الضّرب في عرف العرب إنّما يكون بالسّيف ، والمعروف كذلك أنّ السّيف هو آلة السّلاح الّتي يلجأ إليها أخيراً المحارب حينما يكون شديد القرب من عدوّه . وكأنّ الآية الكريمة تأمر الملائكة بشديد التّمكّن من الكافرين ، وشديد الأخذ لأنّ كلّ ذلك من متعلّقات الضّرب الّذي يكون عادةً بالسّيف .

وسبق لنا في أثناء دراسة الآية الكريمة الحادية والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران الّتي جاءت فيها لفظة الرّعب وذلك في أثناء الحديث عن غزوة أحد[1] أن أشرنا إلى أنّ لفظة الرّعب جاءت مرّاتٍ خمساً في القرآن الكريم . المرّة الأولى في الآية الكريمة الثّامنة عشرة من سورة الكهف ، في مناسبةٍ عامّة تشمل كلّ شخصٍ يصحّ له أن يرى هل الكهف فإنّ الرّعب ستمتلىء به نفسه بين جنبيه . أمّا المرّات الأربع الأخر فقد استُعْمِلت فيها لفظة الرّعب مرّتين اثنتين في حقّ الكافرين ومرّتين اثنتين في حقّ اليهود وذلك في الآية الكريمة السّادسة والعشرين من سورة الأحزاب في حقّ يهود بني قريظة ، والآية الكريمة الثّانية من سورة الحشر في حقّ يهود بني النّضير . ولم تستعمل لفظة الرّعب في القرآن الكريم بحقّ المؤمنين مطلقاً .

وتعيّن الآية الكريمة الأخرى السّبب الّذي من أجله استحقّ كفّار قريش أن يسلّط الله تعالى عليهم رسله من الملائكة ورسوله من البشر . ذلك بأنّهم شاقّوا الله ورسوله ، وبسبب أنّهم خالفوا الله تعالى ورسوله محمّداً صلّى الله عليه وسلّم . ومن يشاقق الله ورسوله يستحقّ خزي الدّنيا وعذاب الآخرة بإذن الله تعالى الشّديد العقاب لمن عصاه وأصرّ على كفره .

والآية الكريمة الثّالثة تقول للكافرين : ذلكم العذاب فذوقوه عاجلاً في الحياة الدّنيا وأنّ للكافرين عذاب النّار يوم القيامة . ومن البيّن الاختلاف بين التّعبيرين بشأن النّوعين من العذاب . بشأن عذاب الكافرين الأكيد في الحياة الدّنيا في هزيمة بدر جاء القول :

---

(١) التّفسير البسيط ٤/١٤٦ ــ ١٤٨ .

﴿ ذلكم فذوقوه ﴾ وبشأن عذاب الآخرة المشروط بموتهم على الكفر جاء القول : ﴿ وأنّ للكافرين عذاب النّار ﴾ والمعروف أنّ مِنْ كفّار قريش الّذين قاتلوا المسلمين في بدر من أسلم وحسن إسلامه كعكرمة بن أبى جهل .

توجيهات للمقاتلين من المؤمنين ونصر من الله لهم على الكافرين

الآيات (١٥ - ١٩)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زحفاً : متزاحفاً بعضكم إلى بعض . والتّزاحف التّداني والتّقارب[1] .

فلا تولّوهم الأدبار : فلا تولّوهم ظهوركم فتنهزموا عنهم[2] .

إلاّ متحرّفاً لقتال : إلاّ متعطّفاً لقتال بأن يريهم الفرّة مكيدةً وهو يريد الكرّة[3] .

أو متحيّزاً إلى فئة : أو منضمّاً إلى جماعة من المسلمين يستنجد بها[4] .

فقد باء : رجع[5] .

تقول الآية الكريمة الأولى للّذين آمنوا بأنّهم إذا لقوا في ميدان القتال الّذين كفروا وكأنّهم لكثرة عددهم وعُدَدهم يزحفون فإنّ عليهم ألاّ يولّوا الكافرين الأدبار وألاّ يفرّوا بل عليهم أن يثبتوا وأن يصبروا ويصابروا أعداء الله تعالى .

والآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ من يولّ الكافرين من المؤمنين وقت القتال وفي ميدان المعركة دبره ويجبن عن قتال الكافرين ويفرّ من الميدان فقد باء بغضبٍ من الله تعالى ورجع بلعنةٍ منه جلّ وعلا ومأواه جهنّم ومصيره النّار . وبئس المصير جهنّم وبئس القرار النّار .

وتستثني الآية الكريمة فريقين اثنين من غضب الله تعالى وتأذن لهم أن يولّوا الكافرين أدبارهم لأنّ في ذلك التّولّي الخير للمؤمنين بإذن الله تعالى . أمّا الفريق الأوّل فهو الفريق

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/١٣٣ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/١٣٣ .

(٣) الجلالين .

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير الطّبريّ ٩/١٣٥ وتفسير ابن كثير ٢/٢٩٤ والجلالين .

من المؤمنين الّذي يخدع الكافرين ويوهم الكافرين أنّه يفرّ من أمامهم ويولّيهم دبره بقصد أن يوقعهم في فخّ وبنيّة أن يدبّر لهم مكيدة كأن يفرَّ كي يباغتهم بالكرّ ، وكأن يفرّ من أمامهم كي يخرجهم من أماكنهم الحصينة إلى العراء وهكذا . وأمّا الفريق الآخر فهو الفريق من المؤمنين الّذي يجد نفسه في موقعه من الميدان غير ذي إيذاءٍ شديدٍ للأعداء بسبب بعد إخوانه من المؤمنين عنه ، أو بسبب قلّة عدد هذا الفريق من المؤمنين في ذلك الموقع ، أو بسبب قلّة عتاده ووشك نفاد ذخيرته وما إلى ذلك . إنّ من حقّ هذا الفريق من المؤمنين أن يترك موقعه ويولّي الكافرين دبره كي ينضمّ إلى إخوانه المؤمنين ويكثّر سوادهم ويشدّ من عضده وعضدهم .

وحينما نعرف أنّ هذه السّورة الكريمة قد بيّنت أنّ الواحد من المؤمنين الصّابرين يغلب بإذن الله تعالى اثنين من الّذين كفروا ، فكأنّ عدد الكافرين إذا زاد عن ضعفي عدد المسلمين يصحّ للمسلمين أن ينسحبوا . والله أعلم . والمعروف أنّ المسلمين كانوا يلجأون في القتال إلى الكرّ والفرّ ، وحينما نزلت هذه الآية الكريمة الّتي تنصّ على الزّحف تحوّل المسلمون في قتالهم إلى الزّحف لأنّ ذلك أنكى وأجدى .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

سبب النزول :

عن ابن عبّاس رفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يديه يعني يوم بدر فقال : ياربّ إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً . فقال له جبريل خذ قبضةً من التّراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضةً من التّراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحدٌ إلاّ أصاب عينيه ومنخريه وفمه ترابٌ من تلك القبضة فولّوا مدبرين[1] قال ابن إسحاق : ثمّ إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخذ حَفْنةً من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ثمّ قال :

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٥ .

شاهت الوجوه ثمّ نفحهم بها وأمر أصحابه فقال : شدّوا فكانت الهزيمة ، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم[1] .

ولِيُبْلِي المؤمنين منه بلاءً حسنا : وليختبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين[2] ويكون البلاء في الخير بالشّكر وفي الشّرّ بالصّبر[3] ويكون اختبار الله تعالى للعباد تارةً بالمسارّ ليشكروا ، وتارة بالمضارّ ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاءً . فالمحنة مقتضيةٌ للصبّر ، والمنحة مقتضيةٌ للشّكر . والقيام بحقوق الصّبر أيسر من القيام بحقوق الشّكر ، فصارت المنحة أعظم البلاءين ، وبهذا النّظر قال عمر : بُلِينا بالضّرّاء فصبرنا وبلينا بالسّرّاء فلم نصبر . ولهذا قال أمير المؤمنين : مَنْ وُسِّع عليه دنياه فلم يعلم أنّه قد مُكِر به فهو مخدوعٌ عن عقله . وقال تعالى : ونبلوكم بالشّرّ والخير فتنة . ولِيُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حسنا[4] .

في معرض المنّ على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين تقرّر الآية الكريمة أنّ المؤمنين الّذين انتصروا في بدرٍ لم يقتلوا المشركين ولكنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي قتلهم بإمداد المؤمنين بالملائكة وبتثبيت أقدام المؤمنين وتأييدهم ، كما تقرّر أنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الّذي رمى جيش الكافرين بحفنة من تراب وقال : شاهت الوجوه ، ليس هو في الحقيقة الّذي رمى وأوصل تلك الحفنة إلى عيون كلّ أفراد جيش المشركين ومناخرهم وأفواههم لأنّ حفنةً واحدة يرمى بها واحدٌ من البشر لايمكن أن تصل إلى ما وصلت إليه ولا يمكن أن تشمل كلّ أفراد جيش الأعداء . وهكذا كان الرّمي الحسّيّ من المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وكان إحداث الأثر المأمول من الله تعالى القادر على كلّ شيءٍ الفعّال لما يريد .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ هذا العون من الله تعالى بقتل المشركين وأسرهم وهزيمتهم إنّما هو اختبارٌ من الله تعالى وابتلاءٌ حسن منه جلّ وعلا فعلى المسلمين أن يبادلوا هذا الإحسان بالإحسان والمنحة بالشّكران . إنّ الله سبحانه وتعالى سميعٌ لكلّ قول عليمٌ بكلّ فعل .

---

(١) السّيرة النّبويّة ٦٢٨/١ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني « بلى » ٦١ .

(٣) معجم مقاييس اللّغة « بلوى » ٢٩٣/١ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « بلى » ٦١ .

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

ذلكم الفعل الّذي فعلنا من قتل المشركين ورميهم بالحصباء ونصر المؤمنين هو فعلنا الّذي فعلنا الآن ، أمّا في المستقبل فإنّا سوف نوهن كيد المشركين ونضعف قوّتهم . ويلاحظ أنّ ثمّة عدولاً إلى استعمال الاسم الظّاهر للذّات العليّة ﴿ الله ﴾ بدلاً من اسم الضّمير ، وفي ذلك تعميقٌ لشعور المؤمنين بفضل الله تعالى العظيم وبخيره العميم عليهم . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب .

إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ ۖ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

سبب النّزول :

روي أنّ أبا جهل كان هو المستفتح وأنّه قال حين التقى بالقوم : اللّهمّ أيّنا كان أقطع للرّحم وأتانا بما لم نعرف فأحِنْه[1] الغداة . وكان ذلك استفتاحه ، فأنزل الله تعالى في ذلك الآية الكريمة[2] .

تخاطب الآية الكريمة مشركي قريش الّذين هزمهم الله تعالى في بدرٍ وتقول لهم : إن تستفتحوا وتطلبوا الظّفر[3] وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين[4] فقد جاءكم حكم الله ونصره المظلوم على الظّالم والحقّ على المبطل[5] وإن تنتهوا عن

---

(١) فأحنه : فأهلكه .

(٢) أسباب النّزول للنّيسابوري ٢٦٨ والسّيرة النّبويّة ٦٢٨/١ وتفسير الطّبريّ ١٣٨/٩ وتفسير ابن كثير ٢٩٦/٢ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « فتح » ٣٧٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢٩٦/٢ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٣٧/٩ .

شرككم وعنادكم وحربكم الله ورسوله فهو خيرٌ لكم ، وإن تعودوا إلى حرب الله ورسوله نعد إلى هزيمتكم ونصر المؤمنين عليكم ولن تغني عنكم فئتكم ولن تنفعكم جماعاتكم وأحلافكم ولو كثرت تلك الجماعات والأحلاف واعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى دائماً مع المؤمنين بالنّصر والتّأييد .

من نعوت المؤمنين ومن صفات الكافرين
وتوجيهات للمؤمنين
الآيات (٢٠ — ٢٩)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾

ولا تولّوا عنه : ولا تعرضوا عنه بمخالفة أمره[1] ولا تدبروا عن رسول الله صلّى الله صلى الله عليه وسلم مخالفين أمره ونهيه[2] ولا تتركوا طاعته[3] .

الأمر والنّهي في الآيتين الكريمتين يتّجهان إلى المؤمنين الّذين نصرهم الله تعالى ببدرٍ وهم أذلّة بصفةٍ خاصّة ، وإلى كلّ المؤمنين وراء ذلك بصفةٍ عامّة . إنّ الآية الكريمة الأولى تأمر الّذين آمنوا أن يطيعوا الله تعالى ورسوله محمّداً صلّى الله عليه وسلم طاعةً مطلقة ، وتنهاهم عن أن يتولّوا عنه ويعرضوا عن دعوته وهم يسمعون دعوته إلى الله تعالى ويعونها .

والآية الكريمة الأخرى تنهي المؤمنين عن أن يكونوا كالكافرين والمنافقين الّذين قالوا سمعنا قولك أيّها الرّسول الكريم وهم في حقيقة الأمر لا يسمعون لأنّهم يقفون عند السّماع المجرّد والمطلوب منهم السّماع الواعي .

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ شرّ الدّوابّ من خلق الله تعالى عنده جلّ وعلا الصّمّ عن سماع الحقّ سماع تدبّر ، البكم عن النّطق به ، الّذين لا يعقلون فلا ينتفون بنعمة العقل الّتي هي أساس التّكليف ، ولا يستنيرون بنور البصيرة .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٣٩/٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٩٧/٢ .

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ الله سبحانه وتعالى لو علم في أولئك الكافرين والمنافقين الصّمّ البكم العمي خيراً لأسمعهم آياته جلّ وعلا البيّنات سماع تدبّر . ولو فرض أنّ ربّ العزّة أسمع أولئك الكافرين والمنافقين سماع تدبرّ لتولّوا وهم معرضون ولانصرفوا وهم كافرون مستكبرون عن عبادة الله تعالى صادّون عن سبيل الله تعالى .

والمعروف أنّ لفظ الدّوابّ يشمل كلّ ما يدبّ على ظهر الأرض من إنسانٍ وحيوان . إنّ الكافرين والمنافقين شرٌّ من الأنعام مثلاً ، لأنّ الأنعام الّتي لا عقل لها تحرص بالفطرة على منفعتها في حين أنّ جنس الإنسان الكافر وقد أنعم الله تعالى عليه بنعمة العقل يكفر ولا يشكر ، ينكر المعروف ولا يذكره .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا : أجيبوا[1] .

لما يحييكم : يصلحكم[2] .

واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه : قال ابن عبّاس : يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان[3] .

تأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا أن يجيبوا الله تعالى وأن يجيبوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إذا دعاهم لما يحييهم بالإيمان ، بعد الموت بالكفر ، وإذا دعاهم لما يحييهم بالقرآن الكريم ، الّذي تبيّن السّنّة النّبويّة المطهّرة معناه . ومن البيّن أنّ الدّاعي هو المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بإذن ربّه جلّ وعلا .

وتأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا كذلك أن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى يحول بين

---

(١) صحيح البخاريّ ٦/٧٧ .

(٢) صحيح البخاريّ ٦/٧٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/١٤٢ وتفسير ابن كثير ٢/٢٩٧ .

المرء وقلبه فلا يمكن أن يتسلّل إيمانٌ إلى القلب ولا كفرٌ إلاّ بإذن الله تعالى وعلمه ، وأن يعلموا أنّهم إليه يوم القيامة يُحْشرون من أجل الحساب ، فالثّواب أو العقاب .

عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال : كنت أصلّي فمرّ بي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدعاني فلم آته حتّى صلّيت ثمّ أتيته فقال : ما منعك أن تأتي ألم يقل الله : يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم . ثم قال : لأعلّمنّك أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن أخرج . فذهب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليخرج فذكرت له ، وقال : هي الحمد لله ربّ العالمين ، السّبع المثاني[1] .

روى الإمام أحمد عن بلال رضي الله عنه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يدعو : يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك[2] وقد روى الحديث أنس بن مالك رضي الله عنه وجابر رضي الله عنه والنّوّاس بن سمعان وعائشة رضي الله عنها وأمّ سلمة رضي الله عنها[3] .

وروى أحمد ومسلم والنّسائيّ أنّ عبدالله بن عمر سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : إنّ قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرّحمن كقلبٍ واحد يصرفها كيف شاء[4] .

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

واتّقوا فتنة : واتّقوا اختباراً من الله يختبركم وبلاءً يبتليكم[5] ومحنةً[6] .

عن ابن عبّاس : واتّقوا فتنةً لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّةً قال : أمر الله المؤمنين ألاّ يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم الله بالعذاب[7] وهذا تفسيرٌ حسنٌ جدّاً[8] .

---

(١) انظر صحيح البخاريّ ٦/٧٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٨ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٩/١٤٤ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٨ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٩/١٤٤ .
(٨) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٩ .

الآية الكريمة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . وهما من أهمّ مقوّمات هذه الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين . وقد قال تعالى[1] : ﴿ ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وأولئك هم المفلحون ﴾ .

والآية الكريمة تأمر الّذين آمنوا بأن يتّقوا فتنةً من الله تعالى لا تصيبنّ الّذين ظلموا منهم خاصّة بل تشمل الفتنة ويعمّ الاختبار والابتلاء ، وتنال المحنة والبليّة كلاً من العاصين والطّائعين . أمّا العاصون فبسبب ما كسبت أيديهم وأمّا الطّائعون فإنّهم لم يسعوا إلى تغيير المنكر ولو بقلوبهم لو عجزت عن التّغيير ألسنتهم وأيديهم .

وتأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا أن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى شديد العقاب أليم الأخذ .

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : والّذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثمّ لتدعنّه فلا يستجيب لكم[2] .

وروى الإمام أحمد عن أمّ سلمة زوج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : إذا ظهرت المعاصي في أمّتي عمّهم الله بعذابٍ من عنده . فقلت : يارسول الله : أما فيهم أناسٌ صالحون ؟ قال : بلى . قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : يصيبهم ما أصاب النّاس ثمّ يصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوان[3] .

وثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وفي رواية : وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل[4] .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٩ ، و١/٣٩٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/٣٩٠ .

وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

تخافون أن يتخطّفكم النّاس : تخافون أن يأخذكم الكفّار بسرعة[1] .

تأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا أن يذكروا ولا ينسوا ، وأن يشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه ولا يكفروا ، إذ كانوا في مكّة المكرّمة في فجر الإسلام وقبل الهجرة إلى المدينة المنوّرة ، قليلاً في العدد والعدّة ، مستضعفين يسومهم المشركون سوء العذاب ، ويخافون أن يتخطّفهم المشركون من كلّ مكان . وأن يأخذوهم بسرعة ، وأن يقضوا عليهم كلمح بالبصر . لقد آواهم الله تعالى في المدينة المنوّرة الّتي أمرهم بالهجرة إليها حيث إخوانهم الأنصار الّذين يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بالأنصار خصاصة وشدّة حاجةٍ وفقر ، وأيّدهم جلّ وعلا بنصره لهم في بدرٍ وهم أذلّة ، ورزقهم من الطّيّبات ، وأسبغ عليهم نعمه جلّ وعلا ظاهرةً وباطنة لعلّهم بعد ذكر تلك النّعم والآلاء يشكرون ويقومون بما يجب عليهم لله تعالى من مبادلة الإحسان بالإحسان بعبادته جلّ وعلا حقّ العبادة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

سبب النّزول :

نزلت في أبي لُبابة بن عبدالمنذر الأنصاري حينما حاصر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد غزوة الأحزاب يهود بني قريظة الّذين ظاهروا الأحزاب إحدى وعشرين ليلة فسألوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يرسل إليهم أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأنّ ماله وعياله وولده كانت

---

(١) الجلالين .

عندهم ، فبعثه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليهم لينزلوا على حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاستشاروه فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه أي إنّه الذّبح ، ثمّ فطن أبو لبابة ورأى إنّه قد خان الله ورسوله فحلف لايذوق ذواقا[1] حتّى يموت أو يتوب الله عليه . وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في ساريةٍ منه فمكث كذلك تسعة أيّام وفي روايةٍ سبعة أيّام حتّى كان يخرّ مغشيّاً عليه من الجهد حتّى أنزل الله توبته على رسوله فجاء النّاس يبشّرونه بتوبة الله عليه وأرادوا أن يحلّوه من السّارية فحلف لا يحلّه منها إلاّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فحلّه بيده فقال : يارسول الله ، إنيّ كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقةً فقال : يجزيك الثّلث أن تصدّق به[2] .

تنهي الآية الكريمة الأولى الّذين آمنوا بالله ورسوله عن أن يخونوا الله والرّسول على غرار ما فعل أبو لُبابة رضي الله عنه حينما أفشى في المعركة سرّاً فأشار بيده إلى حلقه أي إنّه الذّبح لأنّ مثل هذا السّرّ إذا فشا ربّما حمل العدوّ على تغيير موقفه وعلى الاستماتة في القتال والاستبسال فيه ، كما تنهاهم عن أن يخونوا أماناتهم الّتي قبلوها وحملوها والّتي أبت السّماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، بينما حملها المؤمنون . والعجيب في أمر هذا الفريق من المؤمنين أنّه يخون الأمانة عن علمٍ وسابق إصرار .

وتأمر الآية الكريمة الأخرى الّذين آمنوا أن يعلموا علم اليقين ومن هؤلاء أبو لبابة الّذي فعل ما فعل لأنّ أولاده وعياله وماله كانوا عند بني قريظة ، أنّ أموالهم وأولادهم فتنةٌ من الله تعالى وابتلاءٌ واختبار ، فعليهم أن يؤثروا المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة ، كما تأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا أن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى عنده أجرٌ عظيم وثوابٌ كبير للمؤمنين المتّقين .

---

(١) يقال : ذاق الشّيء يذوق ذَوْقاً وذَواقاً ومذاقاً إذا اختبر طعمه .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٣٠٠ وأسباب النّزول ٢٦٩ وتفسير الطّبريّ ٩/١٤٦ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

يجعل لكم فرقاناً : يجعل لكم فصلاً وفرقاً بين حقّكم وباطل من يبغيكم السّوء من أعدائكم المشركين[1] .

تبشّر الآية الكريمة الّذين آمنوا بأنّهم إن يتّقوا الله سبحانه وتعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي يجعل الله سبحانه وتعالى لهم فصلاً وفرقاً بين حقّهم وباطل غيرهم ، بين إيمانهم وكفر غيرهم فلا يضرّونهم شيئاً ، وأن يكفّر الله سبحانه وتعالى عنهم سيّئاتهم الّتي تغطّيها الحسنات وتُذْهبها ، ويحطّ الله سبحانه وتعالى عنهم أوزارهم وأثقالهم ، ويغفر لهم ذنوبهم الّتي ارتكبوها والسّيّئات الّتي أتوها .

وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها أنّ الله سبحانه هو ذو الفضل العظيم غير المحدود والخير العميم غير المقطوع أو الممنوع .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/١٤٧ .

مِن مظاهر سفه كفار مكة

التكذيب بالقرآن والاستهزاء بالعذاب

الآيات (٣٠ – ٣٥)

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

ليثبتوك : ليقيّدوك ويوثقوك[1] ويحبسوك[2] ويسجنوك[3] .

تشير الآية الكريمة إلى حادثة الهجرة فتقول : واذكر يا محمّد إذ يمكر بك الّذين كفروا ويكيد لك مشركو مكّة ليثبتوك ويحبسوك ، ليوثقوك ويقيّدوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك من مكّة المكرّمة . ويمكر كفّار مكّة بك أيّها الرّسول الكريم ويمكر الله تعالى بهم ، إذ يوقفك على مكرهم ويطلعك على حقيقة كيدهم ، فيذهب مكرهم هباءً ، ويمضي كيدهم سدى . والله سبحانه وتعالى خير الماكرين بالكافرين وخير الكائدين للمشركين ، يردّ كيدهم في نحورهم ، ويفضحهم على رءوس الأشهاد ، وينصر رسله ، ويتولّى الصّالحين من عباده .

والآية الكريمة تشير إلى كيد كفّار مكّة ومكر مشركي قريش بالمصطفى صلّى الله عليه وسلّم . فقد اجتمع المشركون بقيادة أبي جهل وفيهم أشراف كلّ قبيلة ، وأرادوا أن يدخلوا دار النّدوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخٍ جليل فأذنوا له بالدّخول وتشاوروا في أمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . وكلّما طرح المؤتمرون رأياً أفسده إبليس . وكان الرّأي الأوّل أن يتربصّوا به صلّى الله عليه وسلّم ريب المنون كغيره من الشّعراء وأن يحبسوه عليه الصّلاة والسّلام ، وكان الرّأي الآخر أن يخرجوه من بين أظهرهم فيستريحوا منه . وأخيراً اقترح أبو جهل عليه لعنة الله تعالى وعلى إبليس اللّعين الّذي استحسن هذا الرّأي الإبليسيّ وأغرى المشركين بقبوله وكان رأي أبي جهل : « نأخذ من كلّ قبيلةٍ غلاماً وسطاً شابّاً نهداً ثمّ يعطى كلّ غلامٍ منهم سيفاً صارماً ثمّ يضربونه ضربة رجلٍ واحد . فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل كلّها ، فلا أظنّ هذا الحيّ من بني هاشم يقدرون على حرب قريشٍ كلّها ،

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٤٨/٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٤٨/٩ وتفسير ابن كثير ٣٠٢/٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٠٢/٢ .

فإنّهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل[1] واسترحنا وقطعنا عنّا أذاه »[2] .

لقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى رسوله صلّى الله عليه وسلّم بواسطة جبريل عليه السّلام ما بيّته المشركون ، وأمره ألاّ ينام في بيته ، فطلب عليه الصّلاة والسّلام من عليّ رضي الله عنه أن ينام في فراشه ، وخرج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على المتآمرين وقد أخذ الله تعالى أبصارهم ، وحثا عليه الصّلاة والسّلام التّراب على رءوسهم وهو يقرأ من سورة ياسين قوله تعالى : ﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراطٍ مستقيم . تنزيل العزيز الرّحيم . لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمحون وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾[3] وهكذا أفسد الله تعالى مكرهم وأبطل كيدهم . ولله الحمد والمنّة .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ آي الذّكر الحكيم إذا تليت على كفّار مكّة وقرئت على مشركي قريش قالوا قد سمعنا ما يُتْلى وفهمنا ما يقرأ ولو نشاء لقلنا مثل هذا ولكنّا لم نشأ أن نقول مثله ، والمعروف أنّهم كاذبون إذ لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ من أقصر سور القرآن الكريم . ويستمرّ المشركون قائلين : ما هذا القرآن الكريم الّذي يُتْلىَ إلاّ أساطير الأوّلين وأكاذيبهم .

ويقال إنّ القائل هو النّضر بن الحارث بن علقمة أخو بني عبدالدّار الّذي كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلّم من أخبار ملوكهم رستم وإسفنديار . ولمّا قدم وجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد بعثه الله وهو يتلو على النّاس القرآن . فكان عليه الصّلاة والسّلام

---

(١) العقل : الدّية .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٤٩/٩ وتفسير ابن كثير ٣٠٢/٢ .

(٣) انظر تفسير الطّبريّ ١٤٩/٩ ــ ١٥١ وتفسير ابن كثير ٣٠٣/٢ .

إذا قام من مجلس جلس فيه النّضر فحدّثهم من أخبار أولئك ثمّ يقول : بالله أيّنا أحسن قصصاً أنا أو محمّد ؟ ولهذا لمّا أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى فقد أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن تضرب رقبته صبراً بين يديه بأن جيء به أسيراً وضرب عنقه بالسّيف . ولله الحمد والمنّة[1] .

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

الآية الكريمة الأولى تقول : واذكر يا محمّد إذ قال كفّار مكّة ، النّضر بن الحارث ، أو أبو جهل ، أو كفّار مكّة السّفهاء عموماً[2] إن كان هذا القرآن الّذي يتلوه محمّد موحىً به من عندك وكلامك يا ألله فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا يارّبنا بعذابٍ أليم . ومن البيّن أنّه ليس وراء هذا الجهل والسّفه جهلٌ ولا سفه . إنّ المنتظر من أيّ عاقلٍ في مثل هذه الحال أن يسأل الله سبحانه وتعالى الهداية ، ولكنّ عمى البصيرة هو الّذي يزيّن لهم ما يقولون من سُخْفٍ وسفه .

ومع أنّ القوم سفهاً واستهتاراً يسألون الله تعالى العذاب الأليم والحجارة الّتي تنزل عليهم من السّماء كهيئة المطر فإنّ ربّ العزّة الّذي وسعت رحمته كلّ شيء لايعذّبهم لسببين اثنين . أمّا السّبب الأوّل فهو أنّ أشرف الخلق وخاتم النّبيّين بين ظهرانَيْهِم ، وأما السّبب الآخر فهو أنّ القوم رغم شركهم يستغفرون الله تعالى . هذا إلى وجود ضعفاء المؤمنين معهم . وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذين السّببين . قال ابن عبّاس : كان فيهم أمانان ، النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والاستغفار ، فذهب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبقي الاستغفار[3] .

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٩/١٥٢ وتفسير ابن كثير ٢/٣٠٤ .

(٢) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٢/٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٠٥ وتفسير الطّبريّ ٩/١٥٤ .

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

عرفنا أنّ ثمّة سببين يمنعان عذاب الله تعالى من كفّار مكّة . وجود المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بين ظهرانَيْهم والاستغفار . وهذا الاستغفار شَرِكةٌ بين كفّار مكّة وبين المؤمنين المستضعفين .

والمعروف أنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم قد هاجر وخرج من مكّة المكرّمة فبقي الاستغفار . وإنّه بالنّظر إلى ما حلّ بالمشركين في بدر يتبيّن أنّه عذابٌ من الله سبحانه وتعالى لهم ، وكأنّ هؤلاء المشركين غفلوا عن الاستغفار ، هذا إلى أنّهم خرجوا من مكّة إلى بدر فتميّز عنهم المؤمنون المستضعفون في مكّة المكرّمة . وإلى كون انفصال المشركين عن المؤمنين وابتعادهم عن المؤمنين شرطاً في حلول العذاب بالمشركين كيلا يشمل العذاب بالضّرورة المؤمنين أشارت الآية الكريمة الخامسة والعشرون من سورة الفتح . قال تعالى : ﴿ هم الّذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ مَحِلّه . ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرّةٌ بغير علمٍ ليدخل الله في رحمته من يشاء . لو تَزَيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليما ﴾ ومعنى ﴿ لو تزيّلوا ﴾ لو تميّزوا عن الكفّار وانفصلوا .

أما وقد ذُهل المشركون عن الاستغفار وانفصلوا عن مؤمني مكّة المستغفرين باتّجاههم إلى بدر فقد سقط كلا الأمانين اللّذين يمنعان عذاب الله تعالى عنهم . وها هي ذي الآية الكريمة تسأل : وما لهم ألاّ يعذبّهم الله . وكيف لا يعذّبهم الله تعالى[1] وهؤلاء المشركون يصدّون عن المسجد الحرام المؤمنين من أهله وسائر المؤمنين ، وما كان أولئك المشركون أولياء المسجد الحرام وما كانوا أهله بسبب شركهم وإن كانت لهم الكلمة في مكّة . إنّ أولياء المسجد الحرام وأهله والخليقين به هم المؤمنون المتقون وحدهم بقيادة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٠٦ .

المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ولكنّ أكثر أولئك المشركين لا يعلمون هذه الحقيقة بل يظنّون أنّهم هم أولياء المسجد الحرام وأهله وأصحاب الكلمة فيه وأرباب الحقّ فيه .

روى البخاريّ[1] عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ أبا جهل قال : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم . فنزلت : ﴿ وماكان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألاّ يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه . إن أولياؤه إلاّ المتّقون ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

إلاّ مكاءً : المكاء هو الصّفير . يقال منه : مكا يمكو مكواً ومُكاء . وقد قيل : إنّ المكو أن يجمع الرّجل يديه ثمّ يدخلهما في فيه ثَمّ ويصيح[2] قال مجاهد : وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم . وقال السّدّيّ : المكاء الصّفير على نحو طيرٍ أبيض يقال له المُكّاء ويكون بأرض الحجاز[3] .

وتصدية : التّصدية : التّصفيق[4] .

كانت صلاة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم قبل الإسراء والمعراج ركعتين صباحاً وركعتين مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السّلام . وحينما عُرج بالمصطفى صلّى الله عليه وسلّم إلى السّماوات العلى فرض الله تعالى عليه صلّى الله عليه وسلّم وعلى المسلمين الصّلوات الخمس في اليوم والليّلة على النّحو المعروف . وفي صبيحة الإسراء الّذي كان قبل

---

(١) صحيح البخاريّ ٦/٧٨ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/١٥٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/١٥٨ وتفسير ابن كثير ٢/٣٠٦ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/١٥٧ وتفسير ابن كثير ٣٠٧ .

الهجرة بسنةٍ واحدةٍ جاء جبريل عليه السّلام وعلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كيفيّة الصّلاة وأوقاتها على النّحو المعروف[1] .

فكيف كان كفّار مكّة يصلّون ؟ لقد بيّنت الآية الكريمة كيفيّة صلاة المشركين المخالفة لصلاة كلٍّ من إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء وصلاة محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وسلّم خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين . كانت صلاة كفّار مكّة عند البيت الحرام وفي أثناء الطّواف بالكعبة المشرّفة عراةً ! الرّجال نهاراً والنّساء ليلاً ، صفيراً وتصفيقا ! .

هذه هي صلاة القوم بنصّ القرآن الكريم ، فاستحقّوا العذاب الأليم في بدر بسبب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى .

---

(١) نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين ٨٣ .

أموال الكافرين التي ينفقونها للصد عن سبيل الله حسرة عليهم وقاتلوهم أيها المؤمنون

الآيات (٣٦ - ٤٠)

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

سبب النّزول :

قال محمّد بن إسحاق حدّثني الزّهريّ ومحمّد بن يحيى بن حبّان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبدالرّحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ قالوا : لمّا أصيبت قريشٌ يوم بدرٍ ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أميّة في رجالٍ من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدرٍ فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش إنّ محمّداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلّنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منّا ، ففعلوا . قال : ففيهم كما ذكر عن ابن عبّاس أنزل الله عزّ وجلّ الآيتين الكريمتين[1] .

حسرة : ندامة[2] .

ليميز الله : ليفرق الله تعالى[3] ويفصل[4] .

فيركمه جميعاً : فيجعلهم ركاماً وهو أن يجمع بعضهم إلى بعضٍ حتّى يكثروا كما قال

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٠٧/٢ وتفسير الطّبريّ ١٦٠/٩ وأسباب النّزول للنّيسابوريّ ٢٧٢ والجلالين .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٥٩/٩ وتفسير ابن كثير ٣٠٧/٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٦١/٩ .

(٤) الجلالين .

جلّ ثناؤه في صفة السّحاب : ثمّ يؤلّف بينه ثمّ يجعله ركاما ، أي مجتمعاً كثيفاً[1] ومتراكماً متراكباً[2] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الّذين كفروا من أهل مكّة ، ويلحق بهم كلّ كافر لأنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب ، ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله تعالى بإشعال الحروب ضدّ المسلمين في بدرٍ وأحدٍ وغيرهما ، وبالصّدّ عن سبيل الله تعالى ووضع العراقيل في طريق الإسلام الدّين الّذي رضيه الله تعالى لعباده ، فسينفقون هذه الأموال ثمّ يغلبون في هذه الحياة الدّنيا في كلّ الميادين العسكريّة والفكريّة ، الحسّيّة والمعنويّة . ويوم القيامة يُحْشر الّذين كفروا إلى جهنّم وبئس المهاد .

والآية الكريمة الأخرى تبيّن الحكمة من خِذْلان الله تعالى أولئك الكافرين فتقرّر أنّ خزي الكافرين في الدّنيا والآخرة ليميز الله سبحانه وتعالى الخبيث من الطّيّب ، ويفصل السّيّء من الحسن ، وكما قال ابن عبّاس : ليميز أهل السّعادة من أهل الشّقاوة[3] ويجعل جلّ وعلا الخبيث بعضه فوق بعض ، فيركمه جميعاً ، ويجعله متراكباً بعضه فوق بعضٍ متراكماً ، فيجعله في جهنّم وبئس القرار .

إنّ أولئك الخبيثين هم الخاسرون في الدّنيا والآخرة . في الدّنيا خسروا المال وفي الآخرة خسروا الجِنان .

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

على الرّغم من إساءات كفّار مكّة المتكرّرة للإسلام والمسلمين هم وسائر الكافرين أمثالهم فإنّ رحمة الله سبحانه وتعالى هي الواسعة دائماً وها هي ذي تسعهم وتشملهم . إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للّذين كفروا بعامّة ، كفّار

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٦١/٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٠٨/٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٦١/٩ .

قريش بخاصّة ، إن ينتهوا عن الكفر ويكفّوا عن الصدّ عن سبيل الله تعالى ويدخلوا في دين الإسلام الّذي رضيه الله تعالى لعباده يغفر الله تعالى لهم ما قد سلف من كفر ومضى عن صدٍّ عن سبيل الله تعالى ، وإن يعودوا إلى الكفر والصدّ عن سبيل الله تعالى فقد علموا سنة الله تعالى في الأوّلين الّتي حقّت عليهم بأن هزمهم الله تعالى في بدرٍ شرّ هزيمة ، ونصر المؤمنين نصراً مؤزّراً ، رغم قلّتهم عدداً وعدّة ، ورغم ذلّتهم .

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

تعتبر الآيتان الكريمتان تبييناً لسنّة الله تعالى الّتي مضت في الأوّلين بأن ينصر الله تعالى جنده ويَخْذُل أعداءه . إنّ الآية الكريمة الأولى تأمر المؤمنين بأن يقاتلوا الكافرين الّذين يصدّون عن سبيل الله تعالى ويجتهدون في فتنة المؤمنين عن دينهم وردّهم كفّاراً بعد ن ذاقوا حلاوة الإيمان . إنّ الآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يقاتلوا أعداء الله تعالى حتّى لا تكون منهم فتنةٌ للمؤمنين عن دينهم وحتّى لا يبقى شركٌ يغري المشركين بالصدّ عن سبيل الله تعالى ، وحتّى يكون الدّين كلّه لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

إنّ الّذين كفروا إن انتهوا عن كفرهم وكفّوا عن الصّد عن سبيل الله تعالى فإنّ هذا هو المطلوب منهم وإنّ الله سبحانه وتعالى عالمٌ بحقيقة نواياهم وأعمالهم ومجازيهم عليها .

وإنّ الآية الكريمة الأخرى الّتي يختم بها الجزء التّاسع من المصحف الشّريف تقرّر أنّ الّذين كفروا إن تولّوا وأعرضوا وكفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى فعلى المسلمين أن يقاتلوهم وأن يصبروا ويصابروا ويرابطوا في سبيل الله تعالى وأن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى مولاهم ومتولّي شئونهم ونعم المولى هو جلّ وعلا ونعم النّصير . وينبغي أن يكون لصيغة المبالغة فعيل كبير الدّور في الدّلالة على قدرة الله تعالى المطلقة على نصر نبيه وإعزاز جنده وإعلاء كلمة الدّين وقهر الكافرين ودحر الكفر والقضاء عليه .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة
في يوم الاثنين الثامن والعشرين من
شهر رمضان المبارك ١٤١٠ هـ
الموافق ١٩٩٠/٤/٢٣ م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د . حسن محمّد باجودة

الموضـــــــــوع	رقم الآيات	رقم الصّفحة
المقــدّمة		٧
أولاً : تمام سورة الأعراف		٩
بين يدي التّفسير		٢٧
التّفســـــير		٤٩
شعيبٌ عليه السّلام وقومه	٨٨ ــ ٩٣	٥١
سنّة الله تعالى في الكافرين الفاسقين وفي المؤمنين المتّقين	٩٤ ــ ١٠٢	٥٧
بعث الله تعالى موسى عليه السّلام بآياته التّسع وعاقبة المفسدين	١٠٣ ــ ١٣٧	٦٧
بنو إسرائيل يسألون موسى عليه السّلام الإذن لهم بعبادة الأصنام والإنكار عليهم	١٣٨ ــ ١٤١	١٠١
مجيء موسى عليه السّلام لميقات ربّه واصطفاؤه بالرّسالة وبالكلام	١٤٢ ــ ١٤٧	١٠٧
اتّخاذ قوم موسى عليه السّلام من بعده العجل إلهاً وغضب موسى الشّديد على قومه.....	١٤٨ ــ ١٥٤	١١٧
توبة بني إسرائيل من عبادة العجل ووجوب اتّباع النّاس جميعاً محمّداً ﷺ	١٥٥ ــ ١٥٨	١٢٧
من بني إسرائيل عادلون وظالمون	١٥٩ ــ ١٦٢	١٣٧
بنو إسرائيل المعتدون في السّبت يُمْسَخون قردة	١٦٣ ــ ١٦٦	١٤٥
ليبعثن الله على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب، وفي القوم صالحون وطالحون	١٦٧ ــ ١٧١	١٥١
يأخذ الله تعالى العهد من بني آدم وهم في عالم الذّرّ بإفراده جلّ وعلا بالعبادة	١٧٢ ــ ١٧٤	١٥٧
مَثَلُ الّذي ينسلخ من آيات الله كمثل الكلب، والكافرون كالأنعام بل هم أضلّ.....	١٧٥ ــ ١٧٩	١٦٣
لله الأسماء الحسنى وانظروا في ملكوت السّماوات والأرض	١٨٠ ــ ١٨٦	١٧١
علم السّاعة عند الله تعالى وحده ، وما محمّدٌ إلاّ نذيرٌ وبشير	١٨٧ ، ١٨٨	١٨١
الله تعالى هو الخالق القادر على كلّ شيء، والآلهة الأخرى مخلوقةٌ عاجزةٌ مقهورة	١٨٩ ــ ١٩٨	١٨٧
من توجيهات القرآن الكريم الهدى والرّحمة للمؤمنين	١٩٩ ــ ٢٠٦	١٩٧
ثانياً : سورة الأنفال حتّى نهاية الجزء التّاسع		٢٠٧
بين يدي التّفســـير		٢١٥
التّفســـير		٢٢٣
من نعوت المؤمنين وحرص فريقٍ منهم على الأنفال وعلى العير	١ ــ ٨	٢٢٥
استغاثة المؤمنين ربّهم وإمدادهم بالملائكة في بدر	٩ ــ ١٤	٢٣١
توجيهاتٌ للمقاتلين من المؤمنين ونصرٌ من الله لهم على الكافرين	١٥ ــ ١٩	٢٤١
من نعوت المؤمنين ومن صفات الكافرين وتوجيهاتٌ للمؤمنين	٢٠ ــ ٢٩	٢٤٩
من مظاهر سفه كفّار مكّة التّكذيب بالقرآن والاستهزاء بالعذاب	٣٠ ــ ٣٥	٢٥٩
أموال الكافرين الّتي ينفقونها للصّدّ عن سبيل الله حسرةٌ عليهم، وقاتلوهم أيّها المؤمنون...	٣٦ ــ ٤٠	٢٦٧
فهرست الموضـــوعات		٢٧٣